العودة الى البيت

قصة

لوليم سارويان
ترجمة ربيع الملا

هذا الوادي ، وكل ما بين وجنتيه ، وهذه الارض الراقدة تحت ابط الجبال المستديرة ، كلها له ، بيته الذي يحلم به .. له، سيجده وادعا كما ودعه ، لم يتغير فيه ركن ، حتى ينابيع المياه المتفرقة ما تزال تغني أغنيتها الطويلة وتدور حلقات صداحة تقبل اعشاب « برمودا » وتداعبها منذ القديم .. وبلدته الصغيرة .. على بساطتها آمنة ما انفكت طروبة باهلها كما هي ..!

وهو في سيره على طول شارع « الفين » احس بالغبطة تعم كيانه والاعتداد يهز اعصابه ... ذلك انه في طريقه الى بيته من جديد ، وكل ما يحيط به عاديبديع .. رائحة الارض الطيبة ... الدخان المتصاعد من المطابخ .. أروع هذه الاحاسيس هو التنعم بنسمات الصيف الرقيقة في الوادي تعانق الشجيرات المبعثرة وتراقص الخضرة الممتدة. وتلك الحشائش تبدو كانها اكثر وطنية منه ... متعلقة بجذورها رغم النسائم ... تتمايل بفخر واعتداد ! كل هذه المعالم الطبيعية .. كلها تحكي حقا طفولته الطائشة بين اعراسها واهازيجها .

واخذ يتنشق بعمق ، يجر اريج الوادي الى رئتيه ويبتسم حالما ادرك بانه اوشك ان يعود الى بيته .. واحس بان حواسه تشكو الصراخ لانها لم تنعم بمرأى هذه الارض منذ طويل ، وجذوة الشوق جعلته يتنفس نسمة الصيف الوافدة من الجبل عليلة رقيقة كجناحي عندلة ، منعشة.

وسار طويلا طويلا وفيه دافع اشد للمسير ومجد الحركة والرياضة في هذه الديار ..! اما المياه التي احبها ، فقد فكر وهو يسمع الى خريرها .. منحدرة من الجبل ، باردة غزيرة .. وتمنى لو انه استطاع ان يغترف منها الكثير ليملأ جوفه العطشى بها ، ولمح على بعد منه رجلا شيخا ممسكا بخرطوم احمر طويل يمر به على الزرع فاندفع نحوه وسار حتى اذا ما اقترب منه حياه بأدب ورجاه ان يسمح له بالشرب في حين التفت الفلاح العجوز اليه وثبت نظره في وجه الشاب المتورد من العرق ثم حوله الى طيفه الصغير الذي سقط على الارض واتجه صوب البيت .. اي بيت ذاك يا ترى ! وناوله الخرطوم قائلا : اشرب .. اشرب يا بني من مائناالنقي ، فمياه هذا الوادي ما زالت رغم السنين اعذب المياه على عكس مياه الجبل العكرة في « فريسكو » وكذلك في « لوس انجلوس » ان طعمها كطعم الزيت .. وكم اعجب لحياة الناس الذين يعيشون هناك منذ سنين طويلة .! وبينما كان الفلاح في كلامه كان الشاب ينصت الى انشودة المياه المنسكبة على الارض ، نقية ، طيبة ، تتشربها التربة الطرية بشره عجيب ، والتفت للرجل قائلا : نعم ، ان مياهنا هي انقى المياه ..! وارخى رقبته وانحنى قليلا يشرب ، فاحس بعذوبة الماء تطفي ظماه وتهديء لهثات صدره المتتابعة .

ورفع راسه كالدجاجة المتعبة مرددا : لحسن الحظ اننا نقيم في الوادي ..! وانحنى ثانية وبدأ يشرب .. ويشرب ، ثم يضحك بغبطة وبدا للفلاح انه لم يشبع .. ثم شرب ... واراد ان يشرب !.. اخذ الفلاح العجب وتساءل : لقد شربت كثيرا يا بني ، وهو ما انفك يشرب والفلاح يتكلم ، الا انهرفع راسه الى لحظات مجيبا باقتضاب : اعتقد ذلك ... انها طيبة ! ومسح فمه بمنديل وما طفق الخرطوم في قبضته كانه ثدي ام يخشى مفارقته . وهو ما زال يريد لو شرب كل ما في جوف الارض .. يتمنى لوضمالى صدره الطبيعة .. حتى السذاجة التي تتجلى في بطن ذلك الوادي .. وعندما سأله الفلاح عن سر عطشه اجاب : لم اشرب منذ سنتين .. اعني اخر مرة شربت فيها من هذا الماء ، لانني كنت بعيدا عن مائنا والان تراني عدت في هذه الساعة الى الارض التي ولدت عليها .. اني اعشق هذا المكان وارغب لو حصلت علي عمل يربطنيبهذه الارض .. اي عمل !.. وركع اخيرا على ركبتيه ممسكا بطرف الخرطوم الطريل كانه يودعه في هذه المرة ، والفلاح انفلت يردد : اكنت ظمآنا يا ولدي .. انا لم ار في حياتي مخاوقا يشرب بقدر ما شربت دفعة واحدة ..! وتابع الشاب سيره في شارع «الفين» وهو يلتفت الى الخلف بين الفينة والاخرى ينظر الى الفلاح العجوز الذي وقف في مكانه يتأمل خطوات الشاب المتعبة تدب على الطريق حتى غاب . وما انفك الشاب يتمتم في اعماقه قائلا : نعم ما فعلت .. لقد عدت ورضيت ان اتحمل مشاق طول الطريق التي قطعتها .. ولم اكن في حياتي يوما الا مخطئا في كل ما افعل .. هكذا عرف عني ، الا هذه المرة اراها على اعتقادي خطيئة ... لكنها مصيبة !

كان الشاب قد انطلق ماشيا من جنوب « سان فرنسيسكو » لا يحمل في عقله فكرة العودة الى أهله .. ولكنها اختمرت من تلقاء نفسها حينما اراد الانحدار جنوبا ، ولكنه كان كلما توقف في مكان او دخل مدينة من المدن في طريقه نظر الناس هناك الى ثيابه المحلية وبنطاله القصير .. نظروا الى هذه الاشياء نظرتهم الى اردية غريبة ، وظن هو نفسه ان هذه النظرات تعني اهلها طرده من ديارهم ، فجعل طريقه الى حيث لا يسخر منه احد ليهرب من تلك العيون المتطفلة التي كانت ترتمي عليه في الشوارع ، حتى اذا اذنت الساعة السابعة لاحت له آنذاك معالم بلدته الصغيرة ، فوجدها اشبه بشيء مألوف .. لا يمكن ان تزدريه ... على طبيعتها لم تتغير ! ولمح ابنيتها العالية .. جرس الكنيسة واضواء معامل الكهرباء ، ملونة تتلألأ في الليل ، وبناء اخر لم يره من قبل فتمتم : ان جمال البناء وموجة الحضارة اراها قد دخلت بلدتنا المتواضعة وضحك ! وطفق يسير في شارع « فولتن » حتى تمنى لو اقام في بلدته وامتلك بيتا فيها لنفسه ، وتزوج .. فكانت هذه الاماني بالنسبة اليه كل ما يريد ورأى وجوها عرفها من قبل .. واناسا يجهل اسماءهم ، والتقى بـ« توني » صديقه القديم .. لقاء اشبه بحلم ، وتذكر بالحال كل منهما الاخر .. تذكرا طفولتهما البائسة على شاطيء النهر وبعدها ودعه قائلا : اريد الذهاب الى البيت .. ان اخوتي لا يعلمون بعودتي ... اكاد احترق شوقا لرؤية « بول » .

وسار مارا في طريقه بالمخازن والواجهات المرتصفة على طرفي الرصيفين وخطر له ابتياع هدية لامه ...

جيوبه وعرف انها فارغة الا من سكين صدئة صغيرة .. ورأى ان يهديها شيئا اخر في المستقبل ! وتنكب طريقه الى شارع « تولير » ولم تمض ثوان قلائل حتى كان بقرب منزله .. بيته القديم الذي يبدو مماثلا لما كان عليه ... وامتد فكره الى والده المسن .. امه العجوز .. واخواته الثلاث ... الى اخيه الصغير ، جميعهم لا بد ان يكونوا في حياتهم المتواضعة يعانون نفس ما يعانونه حتى اليوم .! وتسارعت بغتة نبضات قلبه وخفق صدره بشدة حالما امعن النظر في المنزل فاحس بالمرض والخوف .. ربما لانه نسي شيئا عن المكان .. عن تلك الحياة التي طالما كرهها .. شيئا شاذا غريبا ، ولكنه اخذ يبطيء في خطاه دون شعور كلما تقاربت خطاه من المنزل .. وعاد فلفت نظره ذاك الجدار المتهدم الذي لم تمسه يد منذ أزمان ! وفجأة رانت عليه سحابة من الكآبة وظللته وحشة المكان فخيل اليه ان في المنزل اشياء واجمة كئيبة ، فردد بينه وبين نفسه : علهم لم ينتقلوا الى بيت جديد ليلتقوا بجيران جدد .. البيت على هيكله الاول لولا هذا الجدار الذي ازداد في تآكله وانهدامه ورمى بسهم من افكاره المضطربة الى غيابه الطويل كأنه يحسب لو اضاف الى هذا الغياب سنوات اخرى ، والحقيقة انه فكر بتجديد الرحلة الى حيث لا يرى المكان ثانية ..!

وعاد يجتر شعوره الطفولي الاول عن المدينة الخربة .. وجومها .. بلادة الناس فيها .. فراغ العقول في اهلها ! الماء..! نعم انه نقي ولكن هنالك اشياء اخرى .. اشياء اقرب الى نفسه ، ثم حمل جسده المتعب على ساقيه المكدودتين ومشى حول البيت يحملق فيه حملقته في اثر تاريخي او تمثال رفع على قاعدة شاهقة .. نفس المكان الذي حن اليه طويلا والذي المه فراقه .. ! وخشي ان يخرج احدهم من الباب ويراه وهو لا ريب سيهرب من وجوههم ويختفي عن الانظار ، ورغم تأرجح هذه الرغبات .. رغم اضطرابها وتضاربها في نفسه وعقله اراد لو رآهم جميعا .. جميعا كباقة مرصوصة امام ناظريه عله يشم الرائحة القديمة في البستهم ويسمع الى كلماتهم .. وقلما كانت عذبة ! وبدا من جديد يشعر بمقته الشديد ككل ما في المدينة .. لاهله واخوانه ، وتابع سيره الى المنعطف حيث توقف تحت نور الشارع المتدلي على خشبة غنوج معوجة متمنيا في اعماقه لو رأى اخاه « بول » عساه يفضي اليه بما في قلبه وينفره من حياته في مثل هذا المكان المبتئس ويحذره من المطالعة الدائمة ... فالعلم في نظره لا يساوي ليلة واحدة مع اصوات الذئاب في الغابة الكثيفة . ونسي انه لم يذق الطعام منذ الصباح ذلك ان امنيته كانت في ان يتناول وجبة من اعداد امه ويراها على المائدة في المطبخ بوجهها الاحمر تغضب وترضى ، ولكنه فقد شهيته للطعام الان ، وظل واقفا في الزاوية المنورة ينتظر خروج « بول » الى الشارع وتلفت حوله فرأى الظلام يلف الوادي الصافر الهادىء بكفن اسود قاتم من صنع الليل ، فأحزنه صمت الوادي الكئيب فحول نظره الى الجدار الذي وقف يرى اليه من طرف الزاوية ورغبة ملحة ما زالت تداخله .. رغبة في ولوج البيت، فاخذ يتردد بين طرق الباب ومعانقة امه واخوته ولقاء سريره القديم وبين الفرار من الوادي .. هذه الاشياء .. زملاء طفولته بين جدران البيت ! ويبدو الان انه تذكر انه ربما نسي شيئا اخر في غربته .. شيئا واقعيا ! الا انه يمقته في تلك الحياة ، او يستطيع يا ترى ان يقلب كل شيء ويأتي على كل المعالم الخربة الكئيبة .. مظهر المنزل .. والمدينة .. والوادي ، انه اصغر من هذه المعالم واضعف من الوادي المتسع ! هذه الرغبة في التبديل تلاشت شيئا فشيئا من مخيلته دون عودة ، وهو سيمضي . وهم بالرحيل.. لن يعود ابدا .. ولن يقوى على دخول البيت ،سيعود الى الحياة التي الفها طيلة شهور كثيرة حيث كان في تشرده وضياعه بين سيول القطعان البشرية الغريبة . وفجأة وجد نفسه في الوادي يتسلق السور المتداعي في طرفه ويتجول في الحقل الذي زرعته امه بالبندورة في الوقت الذي كان بصيص باهت من النور ينبعث من نافذة المطبخ .. فعاد وركض باتجاهه حتى تقدم منه مسترقا خطاه لئلا يلمحه احد . وعندما اقترب من المنزل كان امام نافذة المطبخ فاطل منها بحذر ، ورأى اخته الصغيرة « مارتا » منهمكة بغسل الاواني ، وعلى مقربة منها تقف منصته القديمة تعلوها مدفأة سوداء ، وبدت له كئيبة يتيمة بدونه. فلمعت الدمعة بين مقلتيه حالما اشعل لفافة وهو يبكي ويحملق في وجه اخته الصغيرة تارة وفي جدران بيته القديم تارة اخرى . وتوقع ان تدخل المطبخ امه ليراها ويتأكد اذا كان فراقه قد المها واثر عليها .. فكيف تبدو يا ترى ؟! اما زالت نظراتها حزينة شبه مطبقة على الحياة !

وشعر ساعتئذ بتأنيب ضميره له : ذلك انه لم يكن في يوم من الايام ولدا بارا ، ولم يحاول ولو مرة ان يسعد امه ، ولكنه ادرك استحالة ارضائها ، فردد بينه وبين ضميره : مستحيل ! وبينما هو في بحر دموعه المنهمرة لفت نظره « بول » يدخل المطبخ ويشرب ، وتردد في أن يدعوه باسمه .. ان يشعره بعودته ، ولكنه تمالك اعصابه وضبط حبه له متنفسا بعمق يضغط على شفتيه بشدة الا ان عينيهما التقت ببعضها فجأة فاختلطت الدموع بالفرحة في وجه « بول » وشرع يصيح : جو .. جو ، عاد « جو » ! بقي ان يرى امه .. امه التي تمنى وجبة طعام من صنعها فراى ان عليه ان يفاجيء الواقع بمغامرة ، مغامرة مؤلمة ، فمشى بهدوء تتعثر خطواته ببعضها عبو الحقل المتسع وصعد السور حيث هبط منه بعد لحظات الى الممر الطويل وتلفت حوله طويلا وانطلق صوب الافق الداكن ، وفكرة الفشل، الفشل في غربته وبلدته تزدحم وتتراص في عقله . حتى اذا ابتعد ولفه الليل بعباءته القاتمة غاب طيفه عن البلدة الصغيرة وغربت امام عينيه صور اهله فلم يقو الا ان ينفجر بالبكاء ... يبكي لانه احب اهله ، وعبد بيته . الا انه عبثا كره نمط حياتهم .. روتين عيشهم البائس . وشعر انه يهرب من البيت ... من الناس .. من الوادي ، ويبكي بحرقة مؤلمة في عتمة الليل . يبكي ويركض لانه لم يجد شيئا يغيره ولا شيئا يعمره .